الباحثة والبحث: روايتها عن العوائق الذاتية والاجتماعية
شهادات من البحرين

نهى بسيّومي

عام ١٩٩٤ كان قسم الدراسات العامة في جامعة البحرين يعد لندوة حول المناهج في العلوم الإنسانية، وإذ اطلعني رئيس القسم على لائحة المشاركين لم أجد بينهم أية باحثة، أبديت دهشتي، فما كان منه إلاّ أن رمى الكرة في ملعبي وطلب مني ترشيح أسماء باحثات. لم أجد أسماء في السرعة المناسبة، لكن في اليوم التالي أحضرت لائحة صغيرة. كان الجواب عنها «أنهن طريات العود في البحث والمشاركين هم من المشهود لهم في هذا الميدان».

هذا الوضع هو الذي شجعني لأقابل عشر باحثات عربيات في ميدان العلوم الإنسانية والقانونية، محاولة العودة إلى المرأة كذات لفهم موقع المجتمع فيها وليس المجتمع وموقع المرأة فيه[1]. شملت هذه العينة أستاذات من جامعة البحرين (وعددهن سبع) وبعض العاملات في المنظمات الدولية (اثنتان) ومحامية (تمارس المهنة إضافة إلى اهتمامها البحثي بقضايا المرأة القانونية). جميعهن متخصصات في العلوم الإنسانية (علم نفس اثنتان، فلسفة واحدة، أدب عربي واحدة، أدب إنكليزي واحدة، فنون واحدة، قانون اثنتان، تاريخ واحدة، علوم اجتماعية واحدة). وهن من جنسيات عربية متنوعة (٦٠ في المئة بحرينيات و٤٠ في المئة من جنسيات عربية مختلفة)، وأغلبيتهن متزوجات (٨٠ في المئة) وأعمارهن تراوح ما بين الأربعين والخمسين.

محاولتي هي أقرب إلى الاستفهام ومطاردة الالتباس والتساؤل حول أنفسنا كباحثات وتفحص مسارنا البحثي، لا لنؤكد أننا ضحية المجتمع بل لفهم ما يجري لنا وإلى أي حد نحن مسؤولات عن طريقة إنتاجنا، للدخول في عمق الإشكالية دون مواقف مسبقة قدر المستطاع. محاولة تندرج في سياق دراسة تشابك

---

(١) لقد أفدت من طريقة تودوروف في دراسته مكان المجتمع في الإنسان وليس العكس في كتابه: Tzevetan Todorov, *La vie commune*, essai d'anthropologie générale (Paris, 1995).

العوامل الذاتيـة والاجتماعـية، ومعـرفة هل يفرز مصـاعب تعيق إنجازات المـرأة وإلى أي حد. بالطبع لا يمكننا عزل النسـاء عن المجتمع لـدراسة وضعهن علمياً. كما يستـحيل أن نصل إلى قوانين عامة ودقيقة مثل قوانين نيوتن[٢].

كل ما يمكننا القيام به هـو المساهمة في كتابة تاريخنا الراهن من خلال «التـاريخ الصغير» للأفراد، إذ إن التأكيـدات موجودة فقط في الديانات كما يقول ادغار مـوران، حتى إنها لا توجد في العلوم البحتة. ميلنا إلى كشف المنطقة السـاخنة، حيث يتفاعل الذاتي والاجتماعي على نحو يصعب الفصل بينهما، لا يأخذ معنى «الالتزام» بقضية المرأة، الذي يذكرنا بالالتزام العسكري، لكن نأخذ موقف الذي يهتم بقضايا مجتمعه ويحركه عادة توق «سياسي» وليس «مسيساً»، من أجل تغييـر المجتمع نحو الأفضل. نعـتقد أن البحث في العلوم الإنسانيـة هو طريقة للبحث عن الذات، لكن هذا لا يمنع، كما قال هنري ماندرا، أن نخرج منه بمعرفة، لأن الدوافع تثيره وتوجهه نحو موضوعات معينة دون أن تدعه يتوه في مساره البحثي[٣].

الكينونة والرغبات

أكبر الظن أني كنت أختـزن قلقاً إزاء اختلاط الكتابة بالرغبات حـين سألتهن: هل على المرأة كي تبحث إسكات بئر رغباتها، وإن فعلت فهل بمستطاعها الكتابة بعد ذلك؟

«كنت في حالة خوف شـديد في إثر رفع الحجب واكتشـافي بئراً تثير الخـوف من الفقدان، رغم الهلع رأيت اثنين يلبسان ثياب الغطس، يغوصان في السر يختفيان. كأن الداخل مفقود»...

يبدو أنني كمـا قالت فايزة: «عندما تكتب النسـاء، حتى عن موضـوع علمي، فإنه يصـاغ عبر أسئلتهن الداخلية»، أن يكون الباحث معنياً بموضوع بحثه لا يشكل في رأينا عائقاً للبحث، ولكن على العكس تماماً إنهـا نقطة إضافية[٤]، شريطة أن يكون الباحث واعـياً لذلك وأن لا يجعل ذاته محوراً إنما يعمل على تحويل هذا المعنى ليكون موضوعياً[٥].

تعتقـد الباحثات في أغلبـيتهن أن التفكير فـي الكينونة لا يعيق البحث بصورة مـباشرة، بل يشكل دافعاً للدراسة والإنتاج، وتلك مسألة شخصية تتعلق بسبل مواجهة الصراع الذي تعيشه الباحثة، بين ما تريد تحقيقه وبين واقـعها. لكن في سياق الحوار تبين أن هذا التفكير يؤثر على نحو غير مبـاشر في عملية الإنتاج لديها. فطموحاتها للإنـجاز وإن تفاوتت في حدتها، تصطدم بالممارسة العـملية. تؤطر أساليب التنشئة الأسـرية والمجتمعية المـرأة في إطار تقليدي بحيث تفقـد الجرأة أو تتعـثر في تحقـيق ذاتها كباحـثة. أثارت جمـال مخاوف المـرأة التي تعود إلى رواسب هذه التنشئـة: «لدينا إمكانات هائلة، لكننا نريد شيـئاً يخرجنا من هذا الإطار التـقليدي، فنحن شئنا أم أبينا تحت وطأة هذه القيود... التي ترسخت فينا منذ الصغر، ونريد التخلص منها لنثبت أننا نساء أولاً ومنجزات ثانياً. لكن قناعتنا تواجه صعوبات عملية».

(٢) مثلما قال ادغار موران في كتابه: Edgar Morin, *La complexité Humaine* (Paris: Flammarion, 1995), p. 27

(٣) Henri Mendras, *Comment Devenir Sociologue: Souvenir d'un vieux mandarin,* 1995.

(٤) Interview avec Nicole Lapierre, Payot Libraire, no. 34, Mai-Juin 1995, pp. 60-61.

(٥) Ibid.

من زاوية أخرى ترى فايزة، أن المرأة لا تفكر في كينونتها إلاَّ لحل التشابك الداخلي بين دورها التقليدي (تأسيس عائلة، إكمال دور الرجل فيها وفي المجتمع) الذي شكلت أساساً له روحاً وتفكيراً منذ الصغر، وبين خيارها ككاتبة في مرحلة النضج. يحتاج الانتقال من دور إلى آخر إلى إعادة صياغة داخلية لهذه العملية، وهذا أمر لا يخلو من الصعوبة: «هذا الإشكال هو عبارة عن صخرة داخلية تحتاج إلى معول يفتتها حجرة حجرة إلى أن تختفي... إلى أن تقدر المرأة على التواؤم مع ذاتها الجديدة، لأن الكتابة تحتاج إلى الخلاص من الرواسب التي خلقتها كأنثى فقط». إن طرح **نفسها ككاتبة يستدعي الغوص في الذات لتحقيق الذات الكاتبة**. يرافق ذلك مقاومة التفتيت من قبل الآخر: المجتمع، العائلة، التابو، الثقافة الكابتة...

إن الظروف الاجتماعية والسياسية **تسلب صوت المرأة** بوجه أو بآخر، حتى المؤسسات الثقافية، كالجامعة، لا تعطي صوتاً لأساتذتها النساء، تؤكد منيرة، للدلالة على تهميش أكبر للمرأة: «أحمل هم صورتي بيني وبين نفسي، كيف أستطيع العطاء في ظروف تسلبني طوال الوقت، الحريات البسيطة في التحرك... نمضي الوقت في التأكيد على عدم تهميش صوتنا».

تمر المرأة بعملية نمو متواصل وتصارع لتصل بعد جهد طويل إلى نوع من الحل للتناقض الداخلي الذي تعيشه بين معاناتها الذاتية للعمل كامرأة متزوجة ثم لديها أطفال، وبين إعطاء العمل الجهد اللازم كي تثبت وجودها: «كان هناك دائماً جانب من ذاتي لست متأكدة منه، أنني أثبت وجودي كما الرجل... بيني وبين نفسي أجدني مثله، لكني أريد الوصول إلى هذه القناعة وهذا هو المعيق. ربما لأنه لدي نوع من المثالية أطمح إلى الأفضل، أقوم ذاتي وأكون رقيباً عليها أقسى من الآخرين. هذا الرقيب كان يحد مني... لا شك أن **الذاتي يكبت المرأة** إلى أن تصارع الأشياء الداخلية وتبدأ في شق الطريق وهو طويل وصعب...»، تقول ندى.

المعرفة والعرف والدور الجديد

طرحت أسئلة عديدة تتمحور حول علاقة المعرفة بالعرف لديهن، وبخاصة أن تعريف المعرفة ـ على ما يذكر عبد الفتاح كيليتو في **لسان آدم** ـ هي الفصل والتفريق والعزل والقطع[٦]، فهل تقوم المرأة بهذا الفصل، أيمكنها عزل ذاتها عن المعرفة، ألا يعيق الفصل والعزل انخراطها في البحث؟

معظمهن أثرن مسألة الصراع مع الأعراف والتقاليد لكن من زوايا متعددة، فمصدره **المنظومة الثقافية** كما تقول جمال: «لا نستطيع فصل أبعاد قضية المرأة عن ثقافتنا المحلية ولا نسيانها، فهي دائماً موجودة في إطار خلفيتنا الفكرية... لو أردنا التفكير بطريقة علمانية[٧] لاصطدمنا بصراع في داخلنا، هل نريد إثبات وجهة نظرنا، أي أن نكون صادقات مع أنفسنا! لا نستطيع، فنحن مكبلات بقيود ثقافتنا. برأيي هذا عائق».

لا مفر من الاصطدام، لأن الباحثة جريئة، تقول خلود، لذلك تتعرض لهجوم شرس لا يطال أفكارها بل شخصيتها وسلوكها فيطلقون الأقاويل عنها. هذه المحاربة تجعل بعضهن غير

(٦) عبد الفتاح كليتو، **لسان آدم** (المغرب: دار توبقال، ١٩٩٦).

(٧)لقد قصدت من العلمانية، التفكير خارج الأطر الدينية المحافظة التي تشكل ثقافة ضاغطة في المجتمع البحريني الحالي، أي اعتماد الفكر المنفتح مقابل الانغلاق.

مستعدات لهذه المواجهة، **يعزفن عن الكتابة النقدية لأنها كاشفة**. لا يعيق الاصطدام البحث فقط، تضيف هلا، إنما أيضاً أفكارها التغييرية لإزالة الغبن اللاحق بها في المجتمع.

تضع المعرفة المرأة أمام العادات والتقاليد بشكل حاد وصارخ تبعاً لرأي فايزة، فتصطدم بها لأن المعرفة محررة من التقاليد. «إن أرادت الانسجام كذات لا بد من اصطدامها بها لأنها الوحيدة المطبقة عليها العادات والتقاليد. لهذا السبب أغلب الباحثات في العلوم الإنسانية يملكن ذوات صدامية ومتحررة على عكس الرجال».

من جهة أخرى يغدو الفصل الكلي بين المعرفة والعرف مستحيلاً، إذ لا يوجد شيء موضوعي مستقل عن الذاتي كما تقول ندى: «بقدر الإمكان نحاول وضع ذاتنا خارج الموضوع، لكن حتى رؤيتي له مرتبطة بتشكيلة ذاتي وبرؤيتي الخاصة: تشكلت أصلاً من تجربة خاصة ذاتية واجتماعية ومعرفية. هذا لا يعني أن نسقط أو نضفي الكثير من ذاتنا، لذلك يقتضي البحث اتخاذ مسافة ضرورية للنقد».

تأملت جمال أبحاثها بعد سؤالي لها إن كانت تضع رغباتها في التغيير الاجتماعي جانباً حين تدرس موضوعاً اجتماعياً، لتجد وهي المتخصصة بالطفولة والمراهقة، أنه في كل بحث من أبحاثها قضية من قضايا المرأة: «هناك إسقاطات غير واعية تخرج في كتابتنا عندما نفسر النتائج، وتوغل في قضايا المرأة وإثبات للدور الجديد الذي تريد أن تلعبه».

صحيح أن المعادلة صعبة بين العرف ومشاريع المرأة لانطلاقها الذاتي، لكن الأغلبية أقرت بعدم فاعلية الخروج عن المجتمع بشكل قطعي أو مواجهته بحدة، بل العمل باتجاه التوازن لأن التغيير تدريجي. وكمخرج اقترحت هلا استخدام استراتيجيات تعتمد على فهم المجتمع، لتعرف سبل الوصول إلى الناس من أجل التغيير[٨]، وربطتها بامتلاك القوة والسلطة: «أن تكون في مواقع القرار لتستغلها لصالحها وصالح المحيطين بها فتقنعهم بأفكارها. هكذا تغير في العرف السائد وتنفذ ما تفكر فيه، ويحل التوازن بينها وبين الطرف الآخر». المواجهة الوحيدة المتاحة للأعراف والتقاليد بنظر فايزة هي الإنتاج و«طرح نفسها ككائن قادر على طرح الأسئلة والتحليل، وعلى إعطاء آفاق للمسائل الفكرية».

البعض رأى أنه لا مفر من التفاعل بين الداخل والخارج والتغيير. حتى لو لم تدخل المرأة في جمعية أو حزب، إنها بمجرد طرحها لذاتها بشكل معين فهو يعتبر تعبيراً عن حالة سياسية: الشكل الذي تتكلم فيه أو الذي تلبس فيه... والكتابة لا تحدث بمعزل عن الخارج، بل تعتبر عائشة أن الخارج مثير للبحث ولولا هذا المصدر لما تحرك الداخل. أحياناً يُسقط الداخل أشياء على الخارج. لكن من الصعب خلق التوازن بالنسبة إلى منيرة: «في السبعينات، كان الخارج يستنفذني نظراً للوضع الثقافي والسياسي الذي كان سائداً. أما الآن، ليس هناك أي جو يمكنه استنفاذي». إذاً الرغبة ليست في القطيعة مع الخارج أو التعارض معه إنما التفاعل، لكنها رغبة محبطة لغياب الأفكار في الخارج التي يمكنها التواصل معها، فتغدو مجزأة، أطرافاً مبعثرة بعضها خارج عن البعض. في هذا الخواء،

(٨)هي عضو في مجموعة تعمل من أجل قانون للأحوال الشخصية، تلقت المجموعة الشتائم من الشيوخ في الصحف وعلى المنابر، أحدهم وهو في مقتبل العمر كان يعتبرهن ضد الدين، لكن حين واجهت أخته المتزوجة مشكلة صار ينادي بما يقلنه.

غيـاب لفكر تنتمي إليـه، أي انفصال ذاتهـا عن العالم المـحيط بها. هي وحـدها وليس على أرض صلبة، تـبني وحدها وليس ضـمن منظومة عـامة، ورغبـتهـا إقحام الآخـر في الذات نفسها وليس الانفصال عما عداها. على النقـيض من الأغلبية كان رأي رشيدة قطعياً وحاداً، إذ رفـضت التفـاعل والتـداخل بين الداخل والخـارج، «هي تستطـيع الانحراف عن العـرف وفرض نفســها، لكن ذلك يتطلب الكثير من الجـهد، والصراع، لكنه خيار شـخصي والتزام. الصراع مع المجتمع إما أن يسحقها أو أن تتغلب عليه. التصالح غير ممكن، إما أن تأخذ منه كل شيء أو يأخذ منها كل شي»، أليست الأمور أعقد من ذلك بحيث تتداخل التشكيلة الذاتية بالاجتماعـية. ما تقف عنده خلود هو تمايز الأبحاث بين واحدة تعـايش الواقع ولا تؤثر فيه بل تدعمه وأخرى تهدف إلى التغيير: «إن باحثات النوع الأول نشيطات وليس لديهن مشكلة أما الأخريات فلا يمكنهن التعايش مع واقع فاسد ثم التمرد عليه والعودة فيما بعد للاندماج فيـه، خاصة في المـجتمعـات المنغلقة». إذا كـان هذا الموقف يعرف الاخـتلاف بين أهداف البـحث لا أعتـقد أننا حـين نتمـرد على بعض **المـواقف القاهرة للمـرأة يعني أنهـا غيـر مندمجة**، إنها مندمـجة بنسبـة معينة وطمـوحها التـغييـر من أجل الأفضل. أي أن الرفض والاندماج نعايشهما سوياً. وإلاَّ كيف نفسر قبولها وممارستها لبعض العادات والتقاليد؟

التجربة المعيشية والبحث: تواصل أم افتراق؟

يرفض المجـتمع أحياناً صورة المـرأة الباحثة، سـواء من طرف النساء أم من طرف الرجال، حـتى إنها توصم بالادعـاء والفذلكة، كمـا رأى بعض الباحـثات؛ ودلالة ذلك أن المجتمع يفضل الـنموذج الذي تعوده وتعرف إلى كيفية التعـامل معه. لكن هذا النموذج يحظى بالاحترام أكثر في المواقف العلمية من المـواقف الاجتماعية. تقول جمال في هذا الخصـوص: «يريد المجـتمع المـرأة الدمية المطيـعة التي تعـرف أقل من الرجل والتي يسـهل السيطرة عليها، هذا هو النموذج الذي يعززه. حـيال الرفض تجد نفسـها مضطرة لإنكار ذاتها وحقـيقتها وأن تمثل لأنها تعـيش صراعاً. وكلما كان المجـتمع الذي تعيش فيه متزمتـاً، كان التحدي أكبر وكان الصراع النفسي أقـوى لإثبات نفسـها، من أجل ذلك تلجأ إلى أساليب غير مباشرة للوصول إلى أهدافها، فيها ربما الكثير من الذكاء».

خلود أكثر تشاؤماً، فهي تنكر تأثير لغة الباحثة المـعرفية في مجتمعها «لأنها نموذج نادر»، بالتالي هي غير قادرة من خلال تجربتها على جعل الأسرة والعائلة تتكلم بلغتها: «نحن غير قادرات على التأثير عليهما، وعلينا التعايش معهما».

أظن أن هذا الرأي يعود في جـزء منه إلى أنها عزباء وتعيش مع أسـرتها، وبالتالي لا تملك خصوصياتها، ولا تسـتطيع فرض بعض أفكارها. وكان هذا أيضاً رأي منيرة التي تؤكد صعـوبة الاستقلال، فهـو أمر مرفوض، والتحدي في هذا الـوضع يجلب المتاعب أكـثـر ممـا يجلب الراحـة، الأمـر الذي يكوّن عـائقـاً أمـام ممـارسـة المـرأة لأفكارها ولطمـوحاتهـا. وربما لأن تـجربة الزواج تخلق تفـاعـلاً بين أطراف الأسرة على نحـو تستطيع معه أن تمرر جزءاً من رغباتها التغييرية.

واحدة فقط أكدت أن لغة التجربة المعيشية لا تتناقض مع لغة المعرفة، وحسمت المسألة عقائدياً: «إذا انطلقت من مبدأ تصبح رؤيتي للأمور واضحة، عندها أستطيع البحث والعيش دون صراع» تؤكد أمينة. إنها الوحيدة التي لا تؤمن بالضغوط أو بالصراع. يبدو لأنها تسير على خطى إيمانها الديني الذي حل لها إشكالياتها. إنها دلالة على دور المعتقدات في إراحة الفرد من صراعه الداخلي بين ذاته والمجتمع. كأنه كفيل بإزاحة الأسئلة وإحلال الطمأنينة، لأنها تمتلك كل الأجوبة مسبقاً. والأغلبية التي قابلتها هي من النوعية المتسائلة التي لا تؤمن بعقيدة محددة. لكن هذا الجانب رغم إيجابيته، لأنه يحث المرأة على عدم الاستسلام لظروفها وعلى التساؤل والنقد الذاتي، الاجتماعي والثقافي، فهو يشكل مساراً شاقاً، إذ على المرأة مواجهة نفسها كل الوقت وحل المصاعب التي تواجهها عبر منظارها الخاص وليس بالعودة إلى مرجعية جاهزة. وربما يعود موقفها أيضاً لأسباب ذاتية، فهي تزوجت صغيرة جداً في العمر (١٢ سنة) ولم يقف الزواج عائقاً أمام طموحها العلمي، وربما لأن الظروف القاسية التي واجهتها جعلت منها امرأة قوية وصلبة، وبالتالي تعتبر المشكلة فقط في المرأة وقدراتها وليس في المجتمع. لكننا نسوق هذا التساؤل: هل على المرأة أن تكون جبارة كي تنتج أبحاثاً؟ وهي على النقيض من باحثة أخرى رمت كل المسؤولية على المجتمع، فكانت أجوبتها قاطعة، تقول رشيدة: «صحيح أن التجربة المعيشية ضاغطة عليها، لكن عليها إيجاد صيغة ثانية للعلاقة مع المجتمع وأفراده».

بينما نجد أن عائشة تحيل مسؤولية قلة إنتاجها إلى المكان كفضاء ثقافي وإلى غياب إطار حميم أو اجتماعي يساندها معنوياً ويطلق إمكاناتها. فهي حين كانت في أميركا كانت حماستها على الإنتاج أفضل، وتعتقد أن عودتها إلى بيئة تقيدها وتحصرها، على نحو غير مباشر، جعلتها تتقلص من الداخل. إضافة إلى سلم أولوياتها، فهي لا تضع نفسها في أول لائحة اهتماماتها: «فذلك يتطلب جهداً جماعياً يتضافر فيه المحيطون بي، حتى أنظر إلى نفسي على أنني قادرة على العطاء وعلى تحدي الظروف». على ذلك علقت ندى قائلة: «تمر المرأة، في مرحلة من المراحل، بحالات من الصراع والمواجهة المستمرة إلى أن توازن بين جوانب كثيرة في حياتها [...] وتعدد أدوارها يضغط عليها ويصير وضعها صعباً. هذا التداخل والتشابك بين أدوارها لا شك أنه يضغط عليها وقد يحد من نشاطها العلمي».

تثير منيرة ما يشوب اللغة اليومية البسيطة من تعتيم بحيث بقيت لفترة طويلة مهمشة وممارساً عليها الصمت. أما الآن فإنه أعيد الاستماع إليها، في الغرب، حين أعيد النظر في السير الذاتية التي كتبتها نساء، إذ ينظر إليها حالياً كأدب وليس كنوع، وكتاريخ يعبر عن دقائق الحياة اليومية والتفاصيل الخاصة التي لا يمكننا حجبها: «ذلك لا يختلف عن عملية عدم فصل كتابة المرأة عن وضعها. لا يمكن فصل صوتي عن البحث الذي أكتبه».

المسؤوليات الأسرية والإنتاج البحثي: توافق أم تعارض؟

إذا انتقلنا من الشرط العام المتعلق بالتجربة المعيشية للمرأة إلى الشرط الخاص الأسري، نجد أن المعضلة الأساسية هي تعدد أدوار المرأة، الأمر الذي يعني تعدد مسؤولياتها التي تعلق بالتأكيد عملها كباحثة. صحيح أن الرجل مسؤول أيضاً لكنه يعطي الأولوية لعمله، ولا يقوم بدوره كشريك كامل للمرأة، كما قالت جمال. وهو ما نتحقق منه إذا نظرنا إلى أولوياتها التي تبقى العائلة على رأسها، ومهما كان طموحها العلمي ـ لخلق التوازن ربما ـ لا تستطيع المرأة أن تفصل ـ كما يفعل الرجل ـ بين الأدوار العديدة التي تتوزع فيما بينها[٩].

لا تلبث خلود أن تتناول بالتحليل خلط المرأة بين أدوارها وقلة تنظيمها، فتلاحظ أنها تمثل جيلاً انتقالياً مرشحاً لهذه البلبلة. ثم تثير التناقض عند الأزواج بين أفكارهم التحررية وممارساتهم في الأسرة، لتستنتج غياب التقسيم الفعلي للعمل في الأسرة، وتلوم المرأة على قبولها هذا الوضع. شأن عائشة شأن الأخريات، فمعظم أمور البيت يقع على كاهلها، ومع إقرارها بوجود العوائق الأسرية فهي تحاول ألا تستسلم لها. وهذا الرفض يحضها على الإنتاج. ولو أن الإجابات تبدو أحياناً متشابهة فإن كل باحثة تعطي فروقات مختلفة. فنرى منى تعاين هذه القضية وتربطها بالرغبة الملحة في البحث التي تدفع المرأة إلى تنظيم وقتها والتغلب على الصعاب. لكنها تعترف بتقصيرها في المسؤوليات الأسرية حين تستغرق في البحث، إذ «لا يمكن إتمام شيء إلاَّ على حساب أشياء أخرى». فيما ترى هلا أن زمنها مختزق ومشتت لأنه مطلوب منها تأدية دورين على أكمل وجه، دورها في بيتها والأهل والمجتمع وفي الوقت نفسه عليها القيام بعملها بشكل جيد. كأنه يلزمها وقتان.

بينما نجد منيرة أحوج ما تكون إلى جو أسري هادىء ومتناغم كي تكتب، والتوتر في العلاقة مع الشريك يولد لديها نوعاً من «البلوكاج». عقبة أساسية ألاَّ ينسجم المحيطون بها مع رؤياها، «لو كان العبء آتياً من الخارج يمكنني تجاهله، لكن عندما يكون في الداخل حيث دفاعاتي غير موجودة، لا يمكنني ذلك. هذا هو المكان الذي أستريح فيه، لا أستطيع في الداخل أن آخذ موقفاً دفاعياً. هذا غير ممكن في الحالات الحميمة، ليس هناك من تعسف أكبر من ذلك. الناس الأقرب يمكنهم أذيتك لأنك دون حواجز ـ فأنت تحبينهم ـ تتركين نفسك مفتوحة لهم وبالتالي يطالونك بسهولة. هذا مشكل لدي وأحب الوصول إلى نوع من التوازن».

تفسر ندى مسؤوليات المرأة الأسرية بيولوجياً، وهي الوحيدة التي أثارت هذا الجانب، معتقدة أنه إذا كان عليها الاختيار بين الاهتمام بأولادها أو بالبحث، فهي ستختار أولادها ولأسباب بيولوجية. فالاختلاف بينها وبين الرجل ليس ثقافياً فقط بل بيولوجي أيضاً، فهي التي تنجب وعملية الخلق هذه تعطيها اهتماماً لا يتولد عند الرجل بالطريقة نفسها، إضافة إلى التركيبة الاجتماعية التي تؤكد دور الأمومة عندها. كما أنه لدى المرأة قدرة أكبر على الاحتمال من الرجل، وعلى الاحتفاظ بتوازنها البيولوجي والنفسي نتيجة الضغوطات التي تتعرض لها، وبسبب تشكيلها البيولوجي، فلقد وجد العلماء خلايا في المخ تموت عند الرجل حين يتعرض لضغوطات لكنها تستمر عند المرأة.

(٩) انظر: **امرأة موزعة، الأسرة والعمل**، سلسلة بإشراف فاطمة المرنيسي (الدار البيضاء: الفنك، ١٩٨٩).

هنا يظهر التباين بين آراء الباحثات حيث يركز بعضهن على أن الهموم والمسؤوليات العائلية هي أقل التحديات والتحدي الحقيقي هو تحدي الإنتاج والمغايرة: «إن مجرد اختيارها لتكون باحثة يعني أنه لا يمكنها أن تكون أماً مثالية، هذا وهم! عليها أن تعوِّد الأسرة على اختلافها. إذن التحدي الذي تواجهه هو الكتابة لأنها تعيد صياغة نفسها من امرأة إلى كاتبة، هذا هو التحدي الأول والثاني هو أن تكون كتابتها متقدمة تتحدى كتابة الرجل».

الثقة بالنفس وصورة الباحثة

تريد المرأة أن تثبت أولاً لنفسها إمكاناتها العلمية وأن ما تكتبه يليق بتطلعاتها. لذلك تكون رقيباً على نفسها تحكم عليها وتقيمها. لا تملك الجرأة الكافية لتعبر بحثياً عن نفسها بحرية وبطلاقة، فتفرض صورتها الخاصة بها وخصوصاً أنها تخوض البحث حديثاً، تدخل إليه أضعف من الرجل لأنه محل جديد لا تملك زمامه كافياً، ولا تشعر فيه بالأمان.

تقر جمال: «ان المرأة تمارس التفكير بالتفكير نفسه لأنها شفافة وحساسة أكثر من الرجل وغير مباشرة، فتفكيرها تحليلي وتحب التوغل أكثر في الذات، ربما هذا يعيق لكنه يعطينا نتاجاً أفضل. إذا لم تستسلم للضغوطات ربما تصل إلى شيء جديد لم يصل إليه الرجل، إلى منطقة في البحث لم يدخلها».

إلى ذلك تضيف خلود عامل التربية، فهي منذ الصغر لا تعطى مجالاً كي تكسب الثقة بنفسها، لذلك تنشأ مترددة: «نتردد من مواقعنا كنساء مهضومات الحقوق ووجوب أن نبقى نساء، وبين طموحنا العلمي»... وهي لا تملك نفس الفرص المتاحة للرجل في التفرغ والسفر والاطلاع والاختلاط بتجارب الآخرين، إذ كل ذلك يعطي ثقة.

تتصور فايزة المشكلة في أن المرأة «تبني صورة جديدة عن حالها، دور غير موجود ولم ترثه بل هي تؤسسه. وعادة تكون الخطوات في مراحل التأسيس غير واثقة». في المقابل ترى أن الثقة المهزوزة بالإنتاج الفكري تعود إلى الثقافة العربية السلفية، التقليدية أو حتى الحداثية التي تصادر الإنتاج الجديد، مما يخلق تصدعات. لكن الثقة تنمو من خلال الإنتاج، إنها عملية شاقة، فالبناء الداخلي لها يرافقه تهديم في الخارج. «الأمر كله هو أن المستلبة كل حياتها والمهضوم حقها من الصعب أن تتصرف بثقة في النفس»، تقول منيرة، حتى لو حاولت بناءها بينها وبين نفسها، فهي تخرج إلى المجتمع مخلخلة، لأنها مهمشة. وهي أعطت مثالاً كيف أنه في لندن التقت بخليجي متدين، لم يكتف بعدم إلقاء التحية عليها، بل ألغاها بشكل تام فلم ينظر إلى الحيز المكاني الموجودة فيه: «يومياً تواجهنا هذه الأشياء الصغيرة».

الثقة موجودة لكن من السهل خلخلتها، تقول عائشة. لأنه حتى الشخص الأقرب إليها ـ زوجها ـ يحاول سلبها ثقتها بنفسها. الثقة هشة أيضاً في رأي منى، ليس لأنها ضعيفة بل بسبب المواجهات التي تخوضها مع نفسها ومع الآخر، فهي بحاجة إلى رضاه عن عملها... تؤكد هلا وجود نساء يفرضن أنفسهن علمياً على المجتمع. فالمسألة في نظرها شخصية، فردية، وهي تنطبق أيضاً على الرجل. إلاَّ أن المرأة تتعرض للتمييز، فالمجتمع أكثر تسامحاً مع الرجل إذا قصر أو كتب شيئاً لا يتفق مع السائد. لكنه ينظر إليها نظرة سيئة ودونية. نلاحظ كيف أنه مهما حاولت المرأة ألاَّ تفرق بين الرجل والمرأة فيما يخص بعض الظروف أو العوامل

التي يخضعا لها سوياً، فهي سرعان ما ترفد حديثها بملاحظة تؤكد الفرق في الظروف والأحكام.

امتداداً لهذا التفكير نرى أهمية الجانب النفسي حيث ترتبط ثقة المرأة بنفسها بعلاقتها في الطفولة بوالدها، ففي مجتمعنا، وحتى في المجتمع الغربي، الرجل لديه تقليدياً السلطة، وهي بحاجة إلى دعمه وتعزيزه. تقول ندى: «إذا نظر إليها أنها تمتلك نفس الإمكانات وشجعها تتشكل ثقتها آنذاك. لكن إذا كان تقليدياً وعاملها كبنت فإمكاناتها أقل، وليس لديه الاهتمام العلمي حتى يؤكد فيها هذا الجانب، سيكون مشوارها طويلاً حتى تكسب الثقة، وستصارع في أكثر من ميدان».

في هذا الخضم اثنتان فقط أعلنتا ثقتهن الكاملة بقدراتهن: «واثقة من نفسي وأعرف حدودها بالضبط، فلا أضع نفسي بموقف حرج». أما الثانية فكان تفسيرها للأمور مختلفاً، وهو أننا في المشرق ربما نعيش هذا الاهتزاز بالثقة بالنفس في البحث العلمي، لأنه لدينا أسماء علمية كبيرة! بينما في بلدها ليس هناك أسماء كبيرة ضاغطة... إذاً «ليس لديها المبرر لتدخل في منافسة مع الرجل لتثبت نفسها. الفرص كانت لها وله».

الصراع مع القيم والحلقة الناقصة

المرأة المنتجة بحثياً تشكل نموذجاً جديداً، والصورة النموذجية التقليدية لما يجب أن تكون عليه المرأة ما زالت طاغية في المجتمع، فالمرأة الباحثة تولد قيماً لا تنسجم معها كشخص يريد تحقيق ذاته والتعبير عنها بطريقة خلاقة. جزء من الصورة القديمة ترفضه المرأة دون أدنى شعور بالذنب وتبني لنفسها صورة أخرى تعطيها نوعاً من الشرعية الذاتية. بالتالي هي في صراع حتى مع النساء لأنها تهدد الصورة التي اعتمدنها. لكنها في المقابل تحاول، كما قالت ندى، أن تتخطى المحظورات، أمامها حواجز، وضعها الرجل، وعليها تخطيها. ينعكس هذا الأمر قسوة في حكمها على ذاتها، فسنوات طويلة من النظرة الدونية إليها قد تشربت بشيء منها حتى ولو رفضتها. كي تفرض وجودها، عليها الوصول إلى مستوى رفيع جداً حتى لا يحاكموها سلبياً. هذا أيضاً موقف منيرة وعائشة، التي تقول: «هناك إمكانية قوية لأن يثبط الرجل من عزيمتها أو لا يقيمها التقييم الذي تستحقه». لذا تضع قيوداً على نفسها من جراء هذه النظرة التي تكبلها[١٠].

من هنا يأتي حسبانها لدور القارىء في عملية الكتابة، وميلها نحو المثالية، لأنها تحاول تلبية توقعاته وإن لم تكن راضية عنه. لهذه الأسباب، تردد جمال: «هناك حلقة ناقصة أبحث عنها، أن أكون أكثر جرأة وأحقق ذاتي بطريقة أفضل. لكن الحقيقة أنا خائفة من هذا الدور، ربما فيه تهديد للرجل، لا شك أنه يحمل سوء فهم». هو الخوف من رفض الآخرين، والحسبان لتوقعات المجتمع، هي تحب أن تكون مقبولة من الآخرين. ربما الانتقال إلى مرحلة جديدة يحمل كل هذا القلق والتردد. كأن المرأة تخاف من خوف الرجل على مكانته في العائلة، فهي

(١٠) انظر الحوار بين فرنسواز جيرو وبرنارد هنري ليفي حول علاقة الرجال بالنساء. فرنسواز تثير نفس الملاحظة لكن في خصوص علاقة المرأة بالسلطة حيث هي جديدة في هذا الحقل ولا تشعر بالأمان فيه: Francoise Giroud et Oliver Orban, *Les Hommes et les femmes* (Paris, 1993).

تخشى خاصية التفوق عندها إذ تشعر وكأنها تتهم رجولة الرجل وتهددها. إنه سوء الفهم المبني على احتكار السلطة.

أما فايزة فترى أن «المرأة تنشد الكمال، لأنها تعودت منذ الصغر أن يكون هناك آخر رقيب، بالنسبة للرجل تكون علاقة الآخر في نتاجه فقط، بينما هي، علاقة الآخر بها تتجاوز كتابتها إلى شخصيتها، فالرجل تحاكم أفكاره، أما هي فيتم التفتيش في كتابتها بمعنى اللذة الأيروسية، كأنهم يتأملون جسدها، فهناك لذة عملية الانتهاك والتلصص. إذن على أن أنجو من رقابتي الداخلية ورقابة القارىء لأكتبني وليس لأكتب القارىء أي الثقافة السائدة».

أما منيرة فهي لا تخضع للرقابة الذاتية، «من أجل ذلك لا ينشرون لي بعد المقالات في الصحف. الرقابة في الخارج ونحن نتصارع معها. وعليها للأسف إثبات أنها بمستوى الرجل، إنه النموذج الذي تدخل في منافسة معه، فلا يترك لها مساحة لتكون ذاتها كامرأة دون أن ينظر إليها بدونية». كان الحل عند عائشة تقسيم إنتاجها إلى خاص لا ينشر تمارس فيه كل حريتها، وعام يخضع للمراقبة الذاتية فتنشره، حتى إنها تتردد في وضع أطروحتها في مكتبة الجامعة لأنها تحتوي مواقف نقدية من وضع المرأة في المجتمع.

المراقبة عند رشيدة تقوم بها عن خيار: «إذا أردت مهاجمة السلطات مثلاً فعلي تحمل النتيجة فهل هذا يستحق!». هي تزعم أنها تنظر إلى الموضوعات دائماً بشكل مستقل عنها وتعلن قدرتها على التحكم بها. أما هلا فتعتقد أن المشكل ليس في القارىء فقط إنما في المجتمع، لأن بعض أفكارها لا يمكنها كتابتها إذ ستسبب لها المشاكل. الرجل يراقب ذاته أيضاً لكنها أكثر مراقبة لأنها تدان كشخص وليس كفكر.

منى تكتب التاريخ القديم السياسي والاجتماعي، لكنها تكتشف أن الناس إلى الآن مقيدون به وبرموزه فيتحفظون على التسميات الحقيقية، ومطلوب منها عدم تسمية الأشياء بأسمائها «وأنا لست شاطرة في ذلك».

ندرك تماماً أنه لا يمكننا الإحاطة بكل جوانب هذا الموضوع، لكننا حاولنا إظهار بعض من الحالات الخاصة التي تشكل ثغرة في معارفنا الإنسانية. إننا نولي المعرفة بالجزئيات أهمية، لأن حياتنا عبارة عن تفاصيل صغيرة، والملاحظات الخاصة التي تصوغ التحولات الاجتماعية والعلمية. وعلى هذا فإن النتائج التي وصلنا إليها لا تهدف إلى صياغة قانون عام يتعلق بصعوبات تفرغ المرأة للبحث، لأننا رأينا أفراداً رغم اشتراكهن في المعاناة فهن لا يخضعن لمتحول واحد ومؤثر وحيد، فالمسألة أكثر تعقيداً، الأمر يتعلق بوعيهن عموماً وبموروثهن خصوصاً. هذا ما يبعدنا من التعميم ويضع موضوعنا في إطار فهم أشكال المعرفة والحجج عند الباحثة، وكذلك التداخل ما بين النظام الثقافي ـ الاجتماعي ودورها، لمعرفة المسار الذي يبني المواقف ويعرف الواقع[11]. بما أن القيم لم تعد معطى متعالياً[12]، كان مهماً لنا معرفة الصيرورة التي على أساسها تتفق النساء كأفراد أو يتخاصمن مع المنظومة الاجتماعية. لقد صغن في حواراتهن المتعلقة بالحياة اليومية فلسفة وجودهن دون ادعاءات، بل تميزن بشفافية

(١١) Francois Dubet, *Sociologie de l'expérience* (Paris: Le Seuil, 1995).

(١٢) Raymond Boudon, *Le Juste et le Vrai* (Paris: Fayard, 1995).

كشفت مكـامن الجرح والمأزق والالتباس، وكـذلك مكمن القوة والجدة والطمـوح. وكان همهن ربط تقدمهن العلمي بالتغيير الثقافي ـ الاجتماعي من أجل حياة أفضل.

الشيء الجميل الذي لاحظناه أن المرأة تحاول أن تكوِّن ذاتهـا بعيدة من تقليد الآخر كنموذج مهيـمن. من هنا قلقها وصراعهـا مع القيم السائدة. تبتدع صـورة جديدة لها في ظروف فكرية مضطربة، وضمن غياب المؤسسات العلمية الفاعلة المكونة للباحثين. تبدأ الخلق من الصفر في بنى عائليـة تحمل الكثيـر من التقليد، وهي بدورها فـيها شيء من القـديم. هل هو القديم أم أنه خاصيـة أنثوية؟ الجميل أن الأغلبـية أعادت التساؤل حـول مسارهن، اثنتان فـقط من عشر كن حاسـمات، قاطعـات في آرائهن، الأمر الذي جـعلني منزعجـة خلال لقائي بهـن وغير مـرتاحة لمجرى الحوار، وتلمست أن انزعاجي ناتج من عدم مـواجهتهن لذواتهن، سواء بإظهار الضعف والقوة.. المراوحة.. الصراع.. المأزق.. التـردد.. لا حوار بل مونولوج، أو أفكار ثابتة كمن يؤمن إيماناً قاطعاً بعقيدة. ولا غرابة في أن إحداهن رفـضت تسجيل المقابلة وأخرى انتزعت المسجل وأوراقي من يدي لتقرأ ما كتبت أنا وتجـيب، كأنها ألغت دوري من حيث لا تدري. نموذج المرأة المتعلمة والباحثة لكن غير المـتسائلة وذات الرؤية الأحادية موجود لدى النساء كما هو الوضـع بالنسبة إلى الرجـال، كي تهرب من إعادة التساؤل حول الثوابت تضـع المـشكل فقط في جانب: الذات أو المنظومة الاجتـماعية. لكن الأغلبية بين البـاحثات كشفت أن المرأة تهـجر قليلاً دورها القديم وكذلك الرجل، دون أن تتركـه تماماً، فتجد نفســها في وضعية غير مســتقرة أو ثابتة، إذ عليهـا أن تفبرك نمـوذجاً جديداً لكن انطلاقـاً من القديم[١٣]. كائنات تتـوزع بين أشغـال عديدة وطموحات واسعة.

يقول نيتـشه إن الفكر الحر هو الذي يفكر بطريقة مـختلفة لا نتوقعـها من شخص إذا نظرنا إلى ظرفـه، بيئـتـه، وظيفـته أو إلـى الأفكار المسـيطرة في زمنه، وهذا بالفـعل مـا ينطبق على الباحثات، فهن يحاولن انتزاع أنفسهن من نشأتهن مع النهوض بأعبائها. لم يجئن من فراغ لكن لديهن الإمكانية لابتـداع حياتهن. الطريق لـم يخطها أحد لذا يعـشن في وطأة الصراع، إلاّ أنهن مصرات على أنوثتهن ففي داخلهن يشعرن بحريتهن في ابتكار مسار مختلف للكينونة.

رأيت المرأة تستوعب بألم دورها الجديد، لكنه أمر شديد الأهمية أن تراقب نفسها والآخر.

(١٣) انظر: كتاب باسكال بروكنر، **إغراء البراءة**، يخصص فيه فـصلاً عن علاقة النساء بالرجـال وابتداع صور جديدة لهما. Pascal Bruckner, *La Tentation de l'innocence* (Paris: Grasset, 1996).